مَحطاتٌ من حَيَاتي

نضال اطبيش

مقدمة

هكذا هي الأيامُ تمرُ مسرعة حاملة بين طياتها أعمال الخير التي نعتز ونفتخر بها ونستذكرها دوماً، إلى جانب أعمالِ القبح والظلام والخوف التي نتحداها مبتعدين عنها متجنبين استذكارها .

كم هي المحطات التي نتوقف عندها في حياتنا نسترجع فيها ما قد سبق متأملين الطريقِ التي نمضي، فإما أن نواصل المسير، وإما أن تنحرف بنا البوصلة، لترشدنا إلى طريق باتجاه آخر، فبداية محطتي هذه كانت في ذلك اليوم الذي بُلّغت فيه بقبولي معلماً في مديرية التربية والتعليم " جنوب الخليل " .

بداية محطتي كمعلم

في ذلك الصباح الأول لحياتي التعليمية في مدرسة ذكور دير سامت الثانوية، لم يكن الفرح وحده يشغلني، بل كل الرغبة في العطاء والقوة التي يمتلكها الإنسان للعمل، ومع أول قرعة جرس لي كمعلم، كانت البداية مع تخصصي الأحياء والصف الثاني الثانوي العلمي، حيث أسهبت في شرح الدرس، وتمنيت لو أن الحصة تطول، ولكن الأمر اختلف في اليوم التالي، حيث نصف مركزي الآخر من التعيين في مدرسة أساسية، وجدت نفسي محاطاً بزهرات صغيرة وبعيون بريئة مفعمة بالأمل والحياة، وتناديني: أستاذ . . . أستاذ . . . ما اسمك؟ . . . من أين أنت؟ . . . ماذا تدرسنا؟ . . . احترت في وجوههم ولم أرَ إلا البسمة امتزجت مع حيرتي في التعامل معهم، وبدأت أقلب صفحات الكتاب الواحدة تلو الأخرى لعلي أجد ما أدرسه لتلك العيون البريئة، ثم صرخت بهم لضبط الصف، فأشار لي أستاذ ضاحكاً أن الحياة الدراسية تبدأ من هؤلاء الأطفال .

بداية التحول

مرت الأيامُ وأنا أسأل وأبحث وأستفيد من خبرات زملائي المعلمين، فبدأت أشعر بالراحة النفسية والجسدية في كل يوم أذهب فيه للتدريس في تلك المدرسة الأساسية، حيث كنت ألَمَسُ حب الطلاب العفوي للمدرسة والمعلم، فكنت أسطر كلماتي على صفحات بيضاء ناصعة تزداد تلألؤاً كلما أشرقت أشعة الشمس، كنت أسمع كلمات بريئة تترامى هنا وهناك، أحببتُهم وأحببت المدرسة، أما هناك في المدرسة الثانوية فكنت أكتب على صفحات مغبرة، تكاد تكون رمادية مسودةً، كنت أبذلُ جهداً كبيراً لأسطر كلماتي عليها .

محطة التغيير

في السنة الثانية لعملي (1997) كان سروري أعظم عندما أخبرني مديرُ المدرسة الأساسية بأن مدرستنا ومدرسة أخرى وقع عليهما الاختيار من بين مدارس الجنوب من أجل تطبيق مشروع جديد يسمى (مشروع التعليم التكاملي) على مستوى الوطن، وأنه وقع الاختيارُ عليَّ لكوني معلماً نشيطاً لحضور الدورات الخاصة بمادتي العلوم والرياضيات في الوزارة على أيدي خبراء أجَانب، في تلك اللحظة

صمت لبرهة حيث انتابني شعورٌ غريب، فوجدت نفسي موافقاً دون تردد، تاركاً المدرسةَ الثانوية وتدريسَ تخصصي الذي أحببت فكانت هنا محطةُ التغيير، عندما تلقيتُ دوراتِ التعليم التكاملي في الوزارة التي كانت جامعةً للمعلمين من محافظاتِ الوطن كافة، فتبادلنا الخبرات والأساليب، وتلقينا دورات بنمط مختلف واهتمام من المديرية والوزارة منقطع النظير، فكنت ما أن أتعلم أسلوباً أو نشاطاً أو طريقةَ تدريس، سرعان ما أعودُ بها إلى المدرسة لأطبقها، فأجدُ الطلبة يفرحون بها، فهم يريدون الخروجَ عن المألوف وتغير كل شيء من حولهم، فبدأنا بالتغيير، وشعرت أنني تعلمت شيئاً ذا معنى، فجر طاقاتٍ كامنةً لدي كنت اجهلُها.

حولنا معاً غرفةَ الصف من غرفة قاتمة وجدران صامتة إلى غرفة تضم زوايا ناطقةً بالعلوم والرياضيات واللغات. كسرنا حاجز الصمت والجمود، وتغلبنا على الفروق الفردية، فأصبح لكل منهم دور فاعل، فوضعنا معاً قوانين وشعارات نلتزم بها كالالتزام بمهارة حسن الاستماع، والطالب القوي يساعد الطالب الضعيف، فأصبحت المحافظة على المدرسة والصف من أهم أولوياتنا، خرجنا من بين صفحات الكتاب، وبدأنا بالارتجال المنظم الذي وجدت فيه وقود الإبداع والاستكشاف، فخلقنا فضاءً جديداً للتعلم، فعلمت الطلبة العمليات الحسابية بطريقة اللعب، وسمينا الألعاب بأسماء عدة، ففي عملية الجمع كنا نلعب لعبة أعطني أكثر لو سمحت! والطرح خذ مني لو سمحت! وعملية الضرب لعبة الصراخ . . . أصبحنا نبتكر الألعاب ونسميها، علمتهم التعبير بطريقة الدراما ولعب الأدوار، حيث تقمصنا الشخصيات ومثلنا المواقف، وعلمتهم الأخلاق والقيم بالأسلوب القصصي، ربطنا العلوم والرياضيات باللغة العربية والتربية الإسلامية، فسردنا قصص الأنبياء والخالدين، دفعوني إلى قراءة تلك القصص مع أنها لم تكن من اختصاصي، ولكنني عودتهم على ذلك، علمتهم العلوم بطريقة البحث العلمي والاستكشاف.

اخترقنا تحصيناتنا الداخلية التي تكرست بفعل مركزنا الاجتماعي ومنطلقاتنا الشخصية، فامتزجت أفكاري بأفكارهم، وأدواري بأدوارهم، كانوا يتسابقون ويتنافسون في تجهيز وترتيب الصف عندما يسمعون أن زائراً قادماً للاستفادة من تجربتنا، كنا داخل أسوار المدرسة كخلية نحل؛ ينهل من عسلها الجميع، فلَا يكاد يخلو أسبوع دون زيارة المشرفين، أو المديرين، أو المعلمين، أو الخبراء الأجانب في مجال التعليم التكاملي.

ما تغير في نفسي

تركت هذه الزيارات والدورات التي تلقيتها على أيدي مختصين من بريطانيا في مجال أساليب تدريس العلوم والرياضيات، ودورات الدراما، أثراً عميقاً في نفسي، حيث أزالت الحواجز بيني وبين المشرف، وبيني وبين الطالب، وعلمتني كيف أكون معلماً مفكراً وميسراً ومبتكراً، لا ملقناً ومتسلطاً وأسير زمان ومنهاج.

فتغير أسلوبي، عندما أيقنت أن المعلم النموذج هو الذي يقتدي به تلاميذُه ويقلدونه، لأنه يعد المفجر لطاقات الإبداع لديهم، وهو المتفاعل الذي يقيم علاقاتٍ ودية معهم تتميز بروح الديمقراطية والحب والحنان، وعلمتني أن المعلمَ يجب أن يكون متكاملاً لا ينحصر بين دفتي كتاب، وأن كل طالب مزودٌ بطاقات ذهنية وعقلية ومهارات جسدية متفاوتة، تبحث عن أسلوب يلائمها، وعلمتني أيضاً أن المعلم دون ابتكار وارتجال منظم لا يمكنه أن ينشىء جيلاً مثقفاً واعياً، وعلمتني أن لا معنى للتعليم دون ربطه بالتغيرات الأساسية التي تحدث في المجتمع . . . فماذا نعني بتعليم الطلبة دروس التدخين والمعلم والطلبة من المدخنين؟ وماذا نعني بتعليم الأديان ولا نعمل بتعاليمها؟ استطعت من خلال حبي لهم أن أكسب حبهم لي وللمادة التي أدرسها، فأصبحت كلماتي لها معانٍ عندهم، ينتظرون الحصة دوماً لأننا كثيراً ما نخرج عن المألوف، نحوم في فضاء تعليمي واسع، كان لنا في كل يوم حكاية وفي كل حصة قصة.

من طرائف تدريس المرحلة

في أحد الأيام، شبهت لطلبة الصف الثالث المنازل بالرياضيات برجل سمين لا يستطيع أن يأكل أكثر من تسع بطيخات، أو تسع وتسعين حبة لوز، . . . وهكذا، فتعجب الطلبة من ذلك وسألوني: هل هو موجود؟ فقلت لهم نعم. وفي إحدى الزيارات، زارنا شخص سمين، فعندما دخل الصف الثالث وقف أحد الطلبة وسألني ببراءة هل هذا هو الرجل الذي قلت لنا عنه، فضحك الصف وأشرت له خفيةً أن يسكت.

وفي تعليق آخر لإحدى طالبات الصف الثالث عندما سأل مدير التربية الصف: أيُّ الأيام لا تحبونها؟ فأجابت: لا نحب يوم الجمعة؛ لأننا لا نذهب فيه إلى المدرسة! فعند سماعي جواب تلك الطالبة وهي من المجموعة الضعيفة شعرت بالفخر، وأيقنت أنني استطعت أن أغير نمطاً لم يستطع الكثيرون تغييره، وازداد شعوري فخراً عند رؤيتي الطلبة يجوبون الممرات وغرفة الصف ولا يغادرونها للاستراحة من أجل إكمال اللعبة التربوية التي بدأناها معاً.

هذه التجربة شكلت منعطفاً في مسيرتي التعليمية، حيث صقلتني مدرباً للتعليم التكاملي في مديريات (جنوب الخليل، والخليل، وبيت لحم) لمدة ثلاث سنوات، وعضو لجنة مرحلة لمدة سنتين، ومدرباً لمناهج العلوم والصحة لصفوف المرحلة الأساسية العليا. هذه تجربتي الشخصية أقدمها بين أيديكم موثقة بالصور، لعلها تكون جرس البداية لمن هو على بداية الطريق. وفي النهاية، لا أنسى محطتي الأخيرة -المحطة الثقافية التي حل بها قطاري بوقود وجهود المركز الذي أكن له ولكل العاملين فيه الاحترام؛ مركز القطان للبحث والتطوير التربوي.

نضال علي اطبيش
مدرسة ذكور البرج الثانوية - منتدى معلمي دورا وقراها